

حكم قطز والاستعداد لمواجهة التتار ج2

الكاتب: د راغب السرجاني



تجاهل قطز رسائل التتار وتوجهه بجيشه إلى فلسطين

جاءت رسل التتار إلى قطز في مصر تحمل رسالة من هولوكو تقطر سمًا وتفيض تهديدًا ووعيدًا وإرهابًا، وهي رسالة تنخلع لها قلوب أشباه الرجال، أما قطز ومن تبعه فقد اعتصموا بالله، ومن كان الله معه فلا غالب له، قال هولوكو في رسالته كلامًا كثيرًا قد رددته لكثير من الزعماء قبل ذلك، فمما قاله هولوكو مثلًا: نحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، خلقنا الله من سخطه، وسلطنا على من تكبر وتجر من عباده.

وفي موضع آخر يقول: نحن قد أهلكنا البلاد وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد. فهولوكو يستخدم مثل هذه الأشياء، بل إنه يقول في موضع من رسالته: وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر؟ ثم قال في النهاية: تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون، وعن قليل تعلمون على ما تقدمون، وقد أعذر من أنذر.

لقد كانت الرسالة في منتهى الشدة، ولكن سبحان الله المثلث! فإن قطز لم يعبأ مطلقًا بكلمة واحدة من هذه الرسالة، وفي هذا الوقت اضطر هولوكو ترك بلاد الشام ليتجه إلى بلاده بمفرده؛ وذلك لموت أخيه منكو خان الذي كان يرأس دولة التتار في ذلك الوقت، وترك هولوكو قائد جيشه كتبغا على زعامة جيش التتار.

خرج قطز رحمه الله بجيش من مصر وقد تجاوز الجيش مائة ألف مقاتل، وسار على ساحل البحر الأبيض المتوسط مرورًا بالعريش، حتى وصل إلى مشارف فلسطين، خرج رحمه الله من القاهرة في (5) شعبان سنة (658هـ)، وكان هذا موافقًا شهر أغسطس سنة (1260م)، وكان الحر شديدًا، والمرور في سينا صعبًا، ولكنه زيادة في الابتلاء والتنقية للصف المسلم.

جعل قطز رحمه الله على مقدمة جيشه الظاهر بيبرس بعد أن جاءه من بلاد

الشام، وكان الظاهر بيبرس هاربًا من مصر، فأرسل له قطز رسالةً يقربه فيها إليه، واستقدمه من بلاد الشام، وجعله على المقدمة في الجيش؛ وذلك لبراعته في القتال.

لقد كان قطز رحمه الله على عكس ما كان معروفًا في زمانهم، فقد جعل مقدمة الجيش كبيرة جدًا، وكان له هدف في ذلك الأمر، أراد قطز رحمه الله أن يفهم التتار أن مقدمة جيش المسلمين هي كل جيش المسلمين، وأنه ليس من ورائها جيش آخر، فالتقت مقدمة المسلمين بقيادة الظاهر بيبرس بحامية التتار في غزة، وقاتلتها بشدة وانتصرت عليها. نسأل الله عز وجل أن يحرر فلسطين من اليهود.

وفر التتار إلى الشمال يحملون الأخبار إلى كتبغا أن جيش المسلمين بمصر قد جاء إلى فلسطين، واعتقد التتار أن جيش المسلمين ما هو إلا مقدمة الظاهر بيبرس رحمه الله، وحرص قطز رحمه الله على هذا المعنى، فكان يتخفى في سيره، حتى لا يظهر جيشه، بينما يظهر عن عمد جيش الظاهر بيبرس، حتى تعلم العيون المراقبة أن هذا هو الجيش فقط.

مر قطز في طريقه على عكا، وكانت عكا في ذلك الوقت إمارة تحت حكم الصليبيين، فقرر قطز رحمه الله أن يقيم معهم معاهدة، حتى يمر من حول الحصون دون أن يتعرض لحرب صليبية، وهددهم قطز تهديدًا شديدًا أنهم لو خالفوا ترك التتار وعاد لحربهم، أما إن كانوا على العهد فلن يمسهم بسوء. فالرؤية كانت واضحة جدًا عند قطز، فهو لا يريد الدخول في مواقع جانبية؛ لأنه يعلم أن العدو الرئيسي الآن هم التتار، ويعلم أن عكا مدينة حصينة جدًا، ولو فرغ وقته وجهده لفتحها ما استطاع أن يحارب التتار، ولما أشار عليه أحد الأمراء أن يباغت عكا بعد العهد؛ لأن بها ضعف عن كل وقت سابق، قال له قطز: إنه لا يخون العهود، فهذه قيادة إسلامية على منهاج النبوة.

إقامة قطز معاهدة مع إمارة عكا المسيحية

مر قطز في طريقه على عكا، وكانت عكا في ذلك الوقت إمارة تحت حكم

الصليبيين، فقرر قطز رحمه الله أن يقيم معهم معاهدة، حتى يمر من حول الحصون دون أن يتعرض لحرب صليبية، وهددهم قطز تهديدًا شديدًا أنهم لو خالفوا ترك التتار وعاد لحربهم، أما إن كانوا على العهد فلن يمسهم بسوء. فالرؤية كانت واضحة جدًا عند قطز، فهو لا يريد الدخول في مواقع جانبية؛ لأنه يعلم أن العدو الرئيسي الآن هم التتار، ويعلم أن عكا مدينة حصينة جدًا، ولو فرغ وقته وجهده لفتحها ما استطاع أن يحارب التتار، ولما أشار عليه أحد الأمراء أن يباغت عكا بعد العهد؛ لأن بها ضعف عن كل وقت سابق، قال له قطز: إنه لا يخون العهود، فهذه قيادة إسلامية على منهاج النبوة.

معركة عين جالوت

كان الظاهر بيبرس يراوغ القوات التتارية حتى يخفي الجيش الرئيسي بقيادة قطز، ويقفز من مكان إلى مكان، ومن مدينة إلى مدينة، ثم وصل المسلمون إلى مكان اختاروه؛ لتكون فيه المعركة، وسجل المسلمون نقطة كبيرة لصالحهم بالسبق إلى مكان القتال وامتلاك عنصر الإعداد ثم عنصر المفاجأة، واختار قطز سهلًا واسعًا بين تلال كثيرة، هذا السهل هو سهل عين جالوت بين مدينتي بيسان ونابلس في فلسطين على بعد (65) كيلو مترًا فقط من موضع حطين، وكأن الله عز وجل أراد أن يعظم أكثر وأكثر من قدر فلسطين، حتى تدور فوق أراضيها المعارك الخالدة في تاريخ المسلمين: أجنادين بيسان اليرموك حطين ثم عين جالوت. نسأل الله عز وجل أن يمنّ علينا بانتصار مجيد على أرضها ضد اليهود.

وضع قطز مقدمته وعليها الظاهر بيبرس في وسط السهل، ثم أخفى كل جيشه خلف التلال المحيطة وانتظر قدوم التتار، وجاء التتار بصلف وغرور تسبقهم سمعتهم المرعبة، ولكن الله عز وجل ثبت قلب قطز ومن معه من أبطال المسلمين.

وصل كتبغا قائد التتار إلى سهل عين جالوت في (25) رمضان سنة (658هـ) الموافق (6) سبتمبر سنة (1260م) تاريخ من أعظم التواريخ في حياة

المسلمين، قرر كتبغا أن يدخل المعركة من فوره، وكان من سعادة المسلمين أن يقاتلوا في هذا الشهر الكريم؛ ليستعيدوا ذكريات بدر وفتح مكة وفتح الأندلس، دخل كتبغا وهو يعتقد أن قوة المسلمين هي مقدمة الظاهر بيبرس فقط، فلم يأخذ حذره، بل اندفع بكل جيشه ولم يجعل له ظهرًا، وهذا تدبير رب العالمين الذي أعمى عيون التتار عن رؤية جيش قطز، والذي زرع في قلبه الإقدام بكامل جيشه إلى داخل السهل المحاط بكمان المسلمين، تلقى الظاهر بيبرس رحمه الله هو ومن معه الضربة الأولى من التتار بشجاعة بالغة وصبر أمام جحافل التتار، وتناثرت أشلاء المسلمين على أرض عين جالوت، وسالت الدماء وسقط الشهداء من المسلمين، ولكن ما فر رجل واحد منهم. ثم تظاهر الظاهر بيبرس رحمه الله بالانسحاب إلى داخل السهل حتى يستدرج كتبغا ومن معه من التتار وقد حدث له ما أراد، ودخل التتار في الفخ الإسلامي، وأشار قطز رحمه الله إشارة النزول لقوات جيشه المختبئة خلف التلال، فأحاطت بقوات التتار الهائلة إحاطة السوار بالمعصم، ودارت موقعة من أشرف المواقع في تاريخ المسلمين، بل من أشرف المواقع في العالم، وثبت المسلمون فيها ثباتًا هائلًا، ولكن التتار ما لبثوا أن تداركوا أنفسهم، وبدءوا يحاربون في منتهى العنف، وأظهروا مهارتهم وبراعتهم في القتال، وحدث تردد في جيش المسلمين، وبدأت جيوش المسلمين تعود إلى الورا. لاحظ كل هذا البطل المظفر قطز رحمه الله، فقام في شجاعة نادرة وألقى خوذته على الأرض تعبيرًا عن اشتياقه للشهادة وطلب للموت، وأطلق صيحته الخالدة: وا إسلاماه وا إسلاماه. يلخص بها أسباب النصر. فإنه لن ينصر هذا الدين إلا من علم أن دينه أعلى من أهله وماله وكل حياته، وانطلق قطز بنفسه يصرع ويقاتل ويضرب هذا ويطنع هذا، وهو الأمير على كل هؤلاء، وانطلق الجيش السعيد خلف قائده الأسعد، وقام الأمير جمال الدين أقوش الشمسي بحملة صادقة على جيش التتار فوجد أمامه كتبغا زعيم التتار، فحمل عليه حملة صادقة، وضربه عبد الله المؤمن بسيفه ضربة، فسقط العبد الأبق كتبغا صريعًا في دمائه: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال: 17].

ودب الاضطراب في قلوب التتار، وأسر ابن كتبغا ودارت الدائرة على أهل الشرك، وانسحب التتار بسرعة إلى مكان بعيد عن مكان الموقعة، ثم عادوا من جديد يرتبون قواتهم قرب بيسان وانطلق وراءهم قطز بجيشه، وكانت موقعة جديدة أعتى من الأولى، إنها بالنسبة للتتار الحياة أو الموت، ولكنها بالنسبة للمسلمين النصر أو الشهادة، وزلزل المسلمون زلزلاً شديداً، وقاتل التتار قتالاً مريراً، ولكن قطز عاد من جديد يصيح الصيحة الخالدة: وا إسلاماه وا إسلاماه وا إسلاماه قالها ثلاث مرات، ثم قال: يا الله! انصر عبدك قطز على التتار، وعندما يخشع ملوك الأرض لا بد أن يرحم جبار السماوات والأرض، وتنزل الرحمات على الجيش المؤمن، واللعنات على الجيش الكافر.

وقاتل قطز قتالاً مجيداً حتى قتل فرسه، فقاتل وهو يمشي على الأرض، حتى أعطاه أحد جنوده فرساً فركبه، واستمر في القتال، وانكسر جيش التتار كسرة لا قيام بعدها في أرض الشام، وانطلق المسلمون وراء التتار فربقاً يقتلون ويأسرون فربقاً، وأورث الله عز وجل المسلمين سلاح التتار وأموالهم، وفني جيش التتار بأكمله في موقعة عين جالوت لم يفلت منهم إلا الشريد، وانطلق الظاهر بيبرس رحمه الله بمقدمة الجيش يتابع الفارين إلى الشام، ونزل البطل المغوار المجاهد المسلم التقي الورع قطز من على فرسه في أرض الموقعة، ومرغ وجهه في الأرض وسجد لله شكراً.

قائد كهذا لا بد أن ينصر، جيش كهذا لا بد أن ينصر، قواعد ليس فيها لبس ولا غموض، ووصلت أخبار النصر العظيمة إلى أطراف الشام، وانقلب المسلمون على الحاميات التتارية، وقد زالت الرهبة من قلوبهم، وانتصر المسلمون على أنفسهم قبل أن ينتصروا على التتار.

وواصل السلطان المظفر قطز تقدمه وتطهيره لأرض الشام من نجس التتار، ثم دخل دمشق في يوم الثلاثين من رمضان سنة (658هـ) بعد خمسة أيام فقط من عين جالوت، وقضى يوم العيد هناك وكان العيد عيدين: عيد الفطر وعيد النصر والعزة والتمكين، والإعلاء لدين الله عز وجل، والنصر لجنده.

وفي غضون أسابيع قليلة طهر المسلمون كل بلاد الشام من التتار، وواصل الظاهر بيبرس حملاته في الشمال، حتى طهر حلب منهم واستتب الأمن في بلاد

الشام، وأعلن السلطان المظفر قطز رحمه الله توحيد الشام ومصر تحت راية واحدة، وسعد المسلمون بنعمة الوحدة بعد سعادتهم بنعمة النصر. وانطلق العلماء يبشرون الناس بالنصر المجيد، وعمت الفرحة في كل بلاد المسلمين، وأشرقت الأرض من جديد بنور ربها.

المصدر:

محاضرة للدكتور راغب السرجاني بعنوان: التتار وغزو العراق

الكلمات المفتاحية:

#راغب-السرجاني #عين-جالوت #التتار #قطز

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.

<https://muraet.com>